الدين باعتباره حقلا للتفكير والتدبر

د. غوزي مصطفى/ جامعة تلمسان

مقدمة

تعتبر فلسفة الدّين منذ أواخر القرن الثامن عشر حقلا فلسفيا منفصلا له حدوده ومناهجه، وموضوعاته وذلك تزامنا مع صدور مؤلف كانط "الدين في حدود مجرد العقل" ، مؤلف عدّ عند المهتمين بالدراسات الدينية وما تعلق بالظاهرة الدينية بصفة عامة منطلقا لكل بحث ،أو مقاربة ترمي إلى فهم هذه الظاهرة الفهم الملبي لتطلعات الإنسان في الاستزادة المعرفية أو الاستمداد المعرفي من جهة، ومن جهة أخرى المساهمة الفكرية للفلاسفة في قضية من أهم القضايا الإنسانية والتي كانت لعهود وقف يمنع الدنو منه وحتى وان حدث اقتراب بشكل من الأشكال أشير إليه بالبنان و صُدّ بأغلظ الألفاظ .غير أن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن "كانط" هو أول من طرح سؤال الدين بل سبقه في ذلك فلاسفة ،كانت لهم تصورات و تحليلات فلسفية لبعض الموضوعات الدينية ، غير أن "كانط" يعود له الفضل في أنه قام بتصور الموضوع الديني التصور العام المؤسس على قدرات الإنسان الخاصة دون طلب العون من أية جهة كانت حتى وان كانت هذه الجهة فوق طبيعية ،فأدخل الدين برمته دائرة العقل و صار متحيزا بحكم الإحاطة العقلية ونحن في بداية الطريق- نستهل هذه الحركة البحثية بتقديم تعريفات مُجلية لهذا المصطلح.

- التعريف اللغوي:عرّف الرازي الدّين قائلا"الدّين بالكسر العادة والشأن" ودانه يدينه دينا بالكسر:أذله واستعبده، فدان ، وفي الحديث: "الكيّس من دان نفسه ،و عمل لما بعد الموت".ويدل الدّين أيضا على الجزاء والمكافأة يقال:"دان يدينه دينا أيّ جازاه"[1] "والمدين العبد و المدينة الأمة كأنهما أذلهما العمل، و دانه ملكه وقيل:منه سمي المصر مدينة.والدّين أيضا أطاعه ومنه الدّين .و الجمع الأديان . و يقال دان بكذا ديانة فهو ديّن و تدين به فهو متدين و ديّنه تديينا :و كله إلى دينه"[2]

عن فحوى التعريف:قد تكون من بين الملاحظات التي ينتبه إليها القارئ للشرح الكاشف لدلالة الدّين، في المعجم العربي القديم تحديدا" لسان العرب" ، أن العقل العربي المنتج للمعنى قد صاغ مصطلح الدّين وفق مقاييس تجارية تكرّس فكرة الربح وتعلي من شأنها وبالتالي تحجر على الخسارة لأنها إفلاس بالمطلق يحذر على المرء الوقوع

في حفره، وهكذا فالمدينة الحقة هي تلك المدينة الرابحة في تجارتها القائمة على علاقات اجتماعية تضمن ديمومة الخيارات التجارية المنجية من شبح الخسارة فالإفلاس جبرا.إذا مصطلح الدّين قد عجن بكيفية توافق وتنسجم مع

---

[1] محمد الخشت. مدخل إلى الفلسفة الدّين. دار القباء للطباعة و النشر و التوزيع،مصر.ص11

[2] ابن منظور. لسان العرب. دار الصادر، لبنان ص169.

حركة مجتمع يحيا ويتفاعل وينتج قيم روحية ومادية لا تبتعد كثيرا عن قوانين موجهة قد حمل الحمولة التجارية التسترزاقية

في اللغات اللاتينية: التعريف الفلسفي

-لالاند: " حول دين اشتقاق مجادل فيه .يستخرج معظم القدماء (لاكتانس أوغسطين سرقيوس) الدّين "روليقار" ويرون فكرة الربط :سواء الربط الواجب تجاه بعض الممارسات إما الربط الجامع بين الناس ،أو بين البشر و الآلهة .من جهة ثانية يشتق "شيشرون" الكلمة من" روليرو" بمعنى تحديد الرؤية بدقة من البيّن أن هذا التفسير مُصطنع ومُفتعل ،مع ذلك يسود الاعتقاد اليوم أنّ الدّين مُتعلق بالرّبط،لكن ليس بالمعنى الذي يُعطيه "شيشرون" لهذه الكلمة. لاشك كان هناك فعلان على هذه الصورة :في أحدهما "رو" لها قيمة تكرارية بالفعل ؛ وعندها تعني "روليقو" :"قرأ ثانية ،قرأ في عدّة مناسبات" أو تعني أيضا :"اجتاز مجددا (طريقا،بلدا)" . في الفعل الآخر ، لاتدل "رو" على التكرار ،بل على الاجتماع ، التقارب :"روليقو" أو ربما "روليبقو"،قد تعني حينئذ "جمع ،قرّب وحّد" إنّ هذه الكلمة الثانية "روليقو" تتعارض في صورتها مع "إنيقليقو" أو "نيليبقو"، ألم يكن في الإمكان على الرغم من عدم وجود هذا المفهوم في اللاتينية المأثورة ، أن تتعارض هذه الكلمة بمعناها أيضا، وأن تعني تقريبا المعنى ذاته الذي تعنيه "كولار":اعتنى أجلّ أو احترم شيئا ما" ؟ إجمالا قد تعني كلمة "روليجيو" في اللاتينية الإحساس المصحوب بخوف و تأنيب ضمير، بواجب ما تجاه الآلهة" [1]

بهذا الشكل جاء تقديم لالاند للدّين،فقد ربط هذا المصطلح و دلالته بمكونين أساسين للفكر الأوروبي الغربي،المكوّن اليوناني والمكوّن الروماني،اللذان يعدان الإطار الأوّل و المرتكز للعقل الأوروبي.

لينطلق بعد ذلك" لالاند" في عملية شرح للمصطلح تقوم على تحديدات ومعالم فاصلة بين فهم وآخر،للمصطلح ذاته ، فالخصائص التي يفهم بها الدّين و يعرّف فيعرف كثيرة و متنوعة.لدى استدعى الأمر التحديد و التمييز.

يَذكر لالاند أنّ الدّين هو:

-مؤسسة اجتماعية تسعى إلى تجميع أفراد حوْل جُملة من العبادات المنتظمة والتي تُترجم في عديد من الوضعيات والأفعال والمواقف ،أجملها لالاند في كلمة صيغ ليضيف أن هؤلاء الأفراد المتحدين وهم يدينون بهذا الدّين أو ذاك يقومون بما يقومون به إلا لأنهم يعتقدون في قيمة مطلقة لايوجد شيء يضاهيها على الإطلاق ليختم لالاند هذه المرحلة من الفهم واصفا وضعية الفرد المنتمي إلى دين ما بأنه منتسب لقوة روحية أرفع من الإنسان، قوة تتمظهر

[1] أندريه لالاند الفلسفية. تعريب أحمد خليل. منشورات عويدات،بيروت،ط2001،2ص169.

تارة كقوة تنتشر انتشارا في المكان انتشارا و تارة أخرى كقوة تتجلى في كثرة مُتعينة من المعبودات،وتارة أخرى أخيرة كقوة وحيدة،هي الله.

-الدّين هو نسق فردي لمشاعر و اعتقادات و أفعال مألوفة،موضوعها الله.في هذه اللحظة يُدخل "لالاند" في سياق التعريف المعجمي وجهة نظر الفيلسوف "بُوترو" المبنية على أرضية يتقابل فيها الدّين و العلم وجها لوجه يقول "بُوترو" :"الدّين هو تحديدا المطالبة بوجهة نظر الشعور و الإيمان ، إلى جانب وجهة نظر العلم" لينتقل "لالاند" دون مقدمات واضحة إلى القول – هذا على الأقل الملاحظ في الترجمة العربية –،بأنّ هناك دين طبيعي ساد الحديث عنه في القرن الثامن عشر على وجه مخصوص،يتمثل في مجموعة اعتقادات بوجود الله و رحمته و بروحانية النفس وخلودها و بالطابع الإلزامي للعمل الأخلاقي باعتبارها كلّها من وحي الوعي و"النور الداخلي" الذي يُنور كل إنسان. ويختم "لالاند" هذه المرحلة من الإفصاح باعتراف يُدل به صاحب "الاعترافات"أمام كاهن "سافوا": أرى في الدّين ما يُضارع تقريبا مذهب وحدة الوجود أو الدّين الطبيعي ، الذي يدأب المسيحيون على خلطه مع الاتحاد أو اللادين الذي يُشكل العقيدة المعاكسة مباشرة.

– في هذه المرحلة من الشرح و التبيان يُقدم "لالاند" فهما قديما لمصطلح الدّين والذي يُفيد كلام شرف إلى آخر ما قاله ...

نلاحظ أنّ "لالاند" و هو ينشر ما يحمله مصطلح الدّين من معاني عدّة نُسجت –جراء تفاعل وقائع اجتماعية مرّت بها أوروبا عبر حقب تاريخية متباينة و العقل الأوروبي – فتشابكت الدلالات ،لتُحيل حينا على تصور عام ، وحينا آخر لتحيل

على وضعية اجتماعية يكون فيها الدّين إطار حاضن لمجموعة من الأفراد يتوجهون روحيا إلى من هو (هم) أعلى منهم ،و حينا آخر تنبثق دلالة و قد عُبئت بشحنة نفسية من آثارها المباشرة تكبيل الضمير وإشعاره بالذنب، وهكذا تتوالى الدلالات وتظهر تباعا و تماشيا مع الشرط الإنساني المرتبط بتطورات المجتمعات الأوروبية و نضالاتها الداخلية فيما بين مكوناتها الطبقية المتصارعة

مما يجعلنا نفترض أن إنتاج المعنى و نشر الدلالة يعود إلى أسباب شتى من بينها حيوية المجتمع و ديناميكياته ونقصد بهذا التفاعل اليومي بين أفراد المجتمع الواحد والذي قد يذهب أحيانا حينما يستحيل التفاهم أو التوافق إلى حدّ التصادم و التناحر بين الفئات الاجتماعية المؤلفة لنسيج اجتماعي معين . إنّ التفاعل اليومي لا يمكن تصوره بالطريقة الذي تسمح بإنتاج المعنى وتداولها بين الجمهور إلا ضمن سلطة سياسية تمنح هامش حرية للتفكير الحر ، كلّما اتسع هذا الهامش زاد كم المعنى وتعقد و انتشرت فروعه و تباينت تأويلاته، بمعنى آخر أنّ هناك تناسب طردي بين شاسعة هامش الحرية و وفرة المعنى، وهذا ربما الفرق الجوهري بين وفرة المعنى و تعقّده و تشعّبه في الثقافة الأوربية الغربية ومحدوديته وقلّته في الثقافة العربية، ومثال ذلك ما نحن بصدد نشره بخصوص مفهوم الدّين و مقصوده العام ،

وقد يصدق الحكم و يُعمّم على كلّ المعاني و الدلالات.إن انبثاق المعاني وتمظّهرها نشاط إنساني حدوثه يجري كباقي النشاطات يحتاج إلى جملة من الأسباب الفاعلة الموضوعية ،تجعل من المعنى الواحد قابلا للتحقق و التعيّن.

بعد هذا الطرح الموجز لدلالات الدّين، تكون الخطوة المولية والتي يستدعيها المقال أن نُقدم على التعريف بمقصود فلسفة الدّين:

ما فلسفة الدّين؟

ترمي فلسفة الدّين إلى الإحاطة بموضوع الدّين الإحاطة العقلية من خلال إبراز بنيته المكوّنة والتي تتكشف تاريخيا في الأديان العالمية والتي بالرغم من تباينها إلا أنها تعكس منظومة متماسكة من المعتقدات والممارسات المتعلقة بأمور مقدسة ومن جهة أخرى فهم لقضايا الوجود مع ملحق ثري يحوي إجابات نهائية تبدد هواجس الإنسان حول مسألة المصّير و المآل، و إجمالاً، فإنّ فلسفة الدّين هي مجال بحث إنساني محض يتجه فيه إنسان القرون الحديثة إلى اقتراح فهم مختلف أو قراءة جديدة تُراهن على قدرات الإنسان العقليّة والحسيّة وتنظر إلى الظاهرة الدّينية نظرة الدّارس الذي يرمي إلى الفهم و التفسير، مادام العقل قد جُبِل على حبّ الاستطلاع و المعرفة. ولأجل الارتقاء إلى هذا الهدف الذي لا ينفك من الابتعاد، كلّما دنى منه الإنسان واقترب نرى الباحث لا يجد حرجا في استخدام أي منهجٍ يُعينه على إضاءة جانبٍ من جوانب الظاهرة الدّينية باعتبارها ظاهرة إنسانية تُخبرنا عن الإنسان هذا الكائن الذي جمع العالم الكبير في نفسه و صار الكاشف المكشوف، العارف المعروف.

في هذه السانحة أود أن أدخل الموضوع –الدّين باعتباره حقلاً للتفكير و التدبير– مدخلاً كانطيا و تحديداً من خلال كتابه "الدّين في مجرّد العقل " و الذي نقله إلى الّلغة العربية الأستاذ فتحي المسكيني نقل المقتدر، وقد يسأل السائل لماذا وقع اختيارنا على هذا المدخل دون غيره من المداخل،فنقول قد تكون هناك أسباب كثيرة ،إلا أنه من جانبنا نُرجّح سببا واحدًا نراه وجيها و يفي بالغرض المنصوب والذي يتمثل في الإحاطة الابتدائية لموضوع مثل موضوع الدّين ،الذي هو بحاجة إلى تناول متعدد الأفاق و المشارب ، لعلّ و عسى نتوصل إلى شيء ما يسد بعض الحاجة وليس كلّها ، ولوقت معلوم ولظرف يطلب بل يُطالب ويلح فالبيداء تتعاظم يوماً بعد يومٍ...و"كانط" قد يكون الأوّل الذي حاول أن يُقارب الموضوع المقاربة التي تحترم الإنسان ككائن عاقل بمقدوره تناول أي موضوع مهما بلغ شأنه و ارتفع ، لا يوجد مجالات بمنأى عن تدخل العقل الفاتح، السائر، وكلّه ثقة، بأن كلّ يوم يمر إلا وتتقلّص دائرة المجهول، و بالمقابل تتّسع دائرة المعلوم.مقاربة نظرت الموضوع في كليته واضعة إياه أمام محكمة العقل المتعالية.

مجريات المحاكمة:

يُعلن "كانط" ابتداء أن لا حاجة على الإطلاق للدّين ،إن كان هناك من يتصور أن قيام الأخلاق مشروط الشرط الضروري بتوفر الدين بصفته أساسا موجداً لأي دعوة أخلاقية ترمي إلى التحقق ومن ثمة الاستمرار . إن الأخلاق ميدان مكتفي ذاتيا و موضوعيا ، مرتبط في وجوده و مقومات نشاطه و تعينه النظري إلى سلطة العقل وحدها ،إنّ سيادة العقل على الأخلاق ،سيادة مطلقة،لا تقبل النقاش و من ثمة التقاسم يقول كانط :" إنّ الأخلاق

لا تحتاج أبداً فيما يتعلق بذاتها (سواء موضوعيا، فيما يخصّ الإرادة أو ذاتياً فيما يخصّ) إلى الدّين ،بل، بفضل العقل المحض العملي، هي مكتفية بذاتها – إذ من أجل أنّ قوانينها تُلزم عبر الصُورة المجرّدة للشرعية الكلية للمسلمات التي ينبغي أن تُؤخذ طبقاً لها بوصفها الشرط الأعلى (غير المشروط هو ذاته) لكل الغايات . فإنها بعامة لا تحتاج أبداً إلى أيّ سبب مادي لتعيين المشيئة الحرّة ، أيّ إلى أيّ غاية ، لا من أجل أنْ تعرف ماذا يكون و لا أنْ تحضّ على القيام به: بل هي حتّى تستطّيع و يجب عليها ، حين يتعلّق الأمر بالواجب أنْ تتجرّد من كلّ الغايات"[1]4. إنّ تنقية الأخلاق من أي عنصر غريب لا يمت بصلة ما إلى الدائرة المخولة شرعيًا في البث في أمر الأخلاق هي الشرط المسبق والذي به يمكن التطرق إلى الحديث عن أخلاق وبدونه يستحيل ويصير لاغيًا . هكذا تكون البداية في تصور " كانط " لأي فلسفة دين تستحق هذا الوصف ، بل إنّ الأخلاق تؤدي في نهاية المطاف إلى الدّين ومتى حدث ذلك ،توسعت الأخلاق و انتشرت ،و لكي يعطي "كانط لموقفه هذا المتانة المطلوبة يلجأ إلى تمرين منطقي يأخذه مأخذ الحجة ويبني عليه آتي الأفكار يقول كانط : " إنّ القضية : الله موجود إذن يُوجد خير أسمى في العالم ، إذا كان يجب (كقضية إيمانية) أن تنبثق عن الأخلاق فحسب فهي قضية تأليفية قبلية ، هي مع ذلك ،متى تمّ القبول بها فقط ضمن علاقة عملية ،إنما تتخطى مفهوم الواجب الذي تتضمنه الأخلاق (والذي لا يفترض أيّ مادة للمشيئة التحكمية ، بل القوانين الصورية التي من شأنها فحسب) و لا يمكن بذلك أن يتم تطويره انطلاقا منها . و لكن كيف تكون قضية من هذا النوع ممكنة بشكل قبلي ؟ إنّ التوافق مع مجرّد فكرة مشرّع أخلاقي لجميع البشر هو بلا ريب متطابق مع مفهوم الواجب بعامة. في هذه الحالة فإنّ القضية التي تأمر بهذا التوافق هي تحليلية، لكن القبول بوجوده إنّما يقول لنا أكثر من مجرّد إمكانية هذا النوع من الموضوع."[2] قد نُقدم على قطع حبل أفكار السيّد "كانط" ، كي نتوقف فنعود أدراجنا ، في هذه الجزئية من كتاب "كانط" يحاول هذا المفكر أن يبرهن على صحة دعواها و التي مفادها أنّ الأخلاق تتجه صوب الدّين و به ينتشر مداها ويتحيز. وهو في هذا المسعى يُبين على تمكن في المحاججة ، حيث يؤسس حجته على تسليم بصحة القضية الشرطية المتصلة الآتية : إذا كان الله موجودًا ، فإنّه يوجد خير أسمى في العالم . معتبرا إياها قضية تأليفية قبلية إن تعلّقت بدائرة الأخلاق فقط. فماذا يقصد بقضية تأليفية قبلية ؟ للوهلة الأولى يبدو: أن الجمع بين ما هو تأليفي –تركيبي– و ما هو قبلي –تحليلي– محتاج إلى توضيح و تدليل ، فالتركيبي يحدث بفعل بعدي تكون تجربة الحسية هي التي تمنحه القيام و الوجود هكذا هو تعريفه الابتدائي ، إن صدقت العبارة ، بينما القبلي حدث عقلي محض لا يحتاج إلى الواقع الحسي للقيام و الوجود ، وكانط ذاته ،يُقدم على التمثيل ، فيضرب مثال : كل الأجسام ممتدة ، للتدليل على الحكم القبلي ، فالامتداد حمل على الموضوع مطابق له تماما يتعيّن التعيّن العقلي ، دون الحاجة للنزول إلى الواقع المرئي فيعطيه القيام و الوجود ، و يضرب مثال : كل الأجسام لها وزن ، للتدليل على الحكم التركيبي ، هنا نلاحظ ، أنّ الحاجة واقعة ، لا مرد لها ، فالنزول إلى الواقع المرئي حتمي حتى نرى قيامًا و وجودًا ، فكيف الجمع إذن ؟ في هذه اللحظة ، أمامنا خيارات عدّة أو قلْ مسارات ،

[1] إيمانويل كانط.الدّين في مجرّد العقل.نقله إلى العربية فتحي المسكيني.جداول للنشر و التوزيع،ط1،لبنان،2001.ص45

[2] المرجع نفسه ص48 .

قد يكون مسار ما نراه اقترب من فكر السيّد " كانط" اقتراب المحتاط الحذر ، اقتراب اللامفتون الذي قرأ تاريخ الفلسفة قراءة تطورية ، فالفكر الفلسفي فاعلية لها مسارها الخاص ومنطقها بمعزل عن الأحداث التاريخية الأخرى (السياسية ، الاقتصادية ، الاجتماعية) و إن شئت تعبيراً آخر، فصاحب هذا التوجه يرى أنّ هناك استقلال ذاتي لحركة الفكر الفلسفي ، تتم هذه الحركة بفعل إدراك للإشكاليات ثم يتبعه خلق للمفاهيم وهكذا دواليك ، يندفع الفكر بوتيرته الخاصة عاملا على صياغة أسئلة قد صاغها بفعل جهد مميّز من راهن العيش المشترك ، مقترحا إجابات على هيئة مفاهيم تتوج العمل الفلسفي ." جيل دولوز" وهو يقرأ" كانط " يقول بصدد السؤال الأخير ما يلي : " لا يكفي تصور بحد ذاته لتكوين المعرفة . فلأجل معرفة ما، لايلزم فقط أن يكون لدينا تصور ، بل أن نخرج منه "للاعتراف بتصور آخر بخصوصه كمرتبط به "[1] . إذاً أساس المعرفة أساس تأليفي و بالتالي حينما يقول "كانط" إنّ القضية : الله موجود إذن يوجد خير أسمى في العالم ،هي قضية قبلية تأليفية يعني فيما يعني ما أشرنا إليه الحين ،المعرفة أصلا تأليف بين تصورات معينة هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكن أن نمضي في التدقيق معتمدين في ذلك على السيّد "دولوز" فهو يقول ممثلا : " حين أقول: "الخط المستقيم هو الطريق الأقصر" ، " ثمة سبب لكل ما يتغير" ، أقوم بتأليف قبلي: أثبت ب من أ على أنه مرتبط به بالضرورة و بصفة شاملة . (ب هو إذاً تصور قبليّ ؛ أما أ، فيمكن أن يكون كذلك ويمكن أن لا يكون). إن ميزتي القبلي هما الشامل و الضروري. ولكن تحديد القبليّ هو التالي: مستقل عن التجربة. يمكن أن ينطبق القبلي على التجربة و، في بعض الأحوال، لا ينطبق إلاّ عليها.لكنه لا يشتق منها . تحديدا، ليس هنالك تجربة تتطابق مع الكلمات «كلهم"، «دائما"، «بالضرورة"... إنّ الأقصر ليس صفة تفضيل أو ناتج استقراء، بل قاعدة قبلية أُقدّم بها خطا على أنّه مستقيم. و سبب ليس هو الآخر ناتج استقراء، بل هو مفهوم قبلي أتعرّف بواسطته في التجربة على شيء يحدث "[2].

"كانط" وهو يظهر موقفه بإزاء علاقة الأخلاق بالدّين و من ثمة كيف يتصور فلسفة للدّين ، يقوم ببناء صرح يؤسس عليه ما يوافق تصوراته النظرية المتعلقة بالفلسفة و تحديدا ما هو متعلق بمبحث الأخلاق ، مع الامتثال لقواعد المنطق. قد يكون من المفيد جدا، أن نفتح قوسا بالمناسبة، لكي نطّلع ولو بكيفية موجزة مختصرة عن الظروف الاجتماعية الألمانية التي سبقت المنجز الكانطي "الدّين في مجرّد العقل " باعتباره الكتاب المؤسس لفلسفة الدّين و المنطلق لكل مقاربة تسعى إلى الإحاطة بالظاهرة الدينية كظاهرة قابلة للفهم و التفسير؛ إن قارنا الوضع الألماني في القرن السابع عشر و القرن الثامن عشر ، بالوضع الفرنسي أو الوضع في إنكلترا ، فالوضع الألماني يختلف عن الوضعين الفرنسي و الانكليزي إبان القرنين السابع عشر و القرن الثامن عشر، فإن كانت فرنسا مثلا منذ عهد عرفت الاستقرار السياسي و ترسخت فكرة القومية السياسية في الحياة الاجتماعية و صارت بمثابة الفكرة المركزية المنظمة للحياة العمومية ، فإن الأمر يختلف بالنسبة لألمانيا ، ففي تلك الفترة من التاريخ لم تكن لتظهر في ألمانيا مثل هذه الفكرة على المستوى السياسي و لا يعني هذا أنّ هذا النوع من الأفكار لا يُرى له تعيّنا على مستويات أخرى ، يقول

[1] جيل دولوز.فلسفة كانط النقدية، تعريب أسامة الحاج. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،ط1،لبنان،1977.ص10 .
[2] المرجع نفسه، ص10،11 .

الدكتور نورالدين حاطوم في هذا الشأن " إنّ التعبير الفلسفي لفكرة الدولة و القومية ، يختلف في ألمانيا عنه في فرنسا . وهذه النظرية الألمانية تختلف عن النظرية الفرنسية في تطورها الشخصي وفي الاتجاه الذي عينته للشعوب الأخرى . لقد خبرت ألمانيا في تاريخها الطويل تجربة سياسية متناقضة . فقد كانت ضحية العصر الوسيط الذي استحكم في ظهرانيها حتى القرن التاسع عشر، بينما استطاعت فرنسا أن تنجو منه في وقت مبكر . لقد أخذت فكرة السيادة في ألمانيا شكل الإمبراطورية و الفكرة الإمبراطورية أيّ أخذت مفهوما عاما و هو "الكاثوليكية السياسية " ولم ترتبط الفكرة الإمبراطورية بالدولة ولا بالأرض ، بل توضعت فوق الدول الألمانية ، كما توضع الإمبراطور فوق الملوك العاديين .و هو يمثل الفكرة المسيحية من الوجهة السياسية كما يمثلها البابا من الوجهة الروحية ."[1] إضافة إلى هذا العامل الأول يضيف الدكتور نورالدّين حاطوم عاملا مميزا للتجربة القومية الألمانية حيث يقول " لقد خبرت ألمانيا تجربة سياسية أخرى مضادة نوعا ما للسابقة . لقد وجدت في ألمانيا دول اصطنعت اصطناعا، كدولة بروسيا . فقد تشكلت هذه الدولة على يد سلالة آل هوهنترولرن بجمع أراض مختلفة عن طريق الإرث أو الشراء أو الفتح أو الاستيلاء ... واستطاعت هذه السلالة أن تؤلف سكان بروسيا لأن ملوكها اضطروا إلى استدعاء السكان من مختلف أقطار أوروبا إلى بروسيا لتعمير الأراضي البور و المتروكة على طبيعتها ؛ ثم إلى صهر هذه العناصر المختلفة من السكان و تشكيل كلّ غير متجانس العناصر؛ و أخيرا إلى تقسيم السكان إلى طبقات حسب قرار فريديريك . وهكذا تألفت الأمة البروسية ."[2] نعتقد اعتقادا ، جازما أن الأفكار التي ألفت كتاب "الدّين في مجرد العقل" و غيره من الأفكار على وجه الإطلاق تدين في الوجود إضافة إلى الذات المفكرة ، فإن العوامل الموضوعية لها نسبة معتبرة في توجيه الأفكار و في بلورتها ، حتى بالسماح بظهورها و باستقبالها و بإعلاء من شأنها . و بالتالي فإنه كلما كان الإلمام بهذه العوامل الموضوعية متحققا ، أثّر إيجابا على الإدراك الجيد لمقصود الأفكار. إنّ الشخصية الألمانية ، استنادا لما ذُكر سلفاً قد تشكلت تاريخيا تشكلاً كان السبق فيه للإطار الفكري (الأدبي ، الفلسفي ، الديني) على الإطار السياسي باعتباره حاضن و منظم للجماعة الوطنية ؛ بخلاف ما تمّ مثلا في فرنسا بمعنى أن الشخصية الألمانية أو قل القومية الألمانية قد وجدت في اللغة الألمانية خير معبر عن هذا الائتلاف، و قد يكون الفيلسوف "هردر" هو من أسس لهذه النظرة :" فقد كان يرى في الّلغة روح الشّعب ،و يعتبرها خير مُعبّر عن فكره و مزاجه و حساسيته و أصالتها .و هذا يعني أنّ القوميّة كائن عضوي ظاهرته الأساسيّة الّلغة البدائيّة للشّعب "[3]. في هذا الجو العام الذي عاشته ألمانيا قبل أن تصير وحدة سياسيّة ، ظهر مُنجز" كانط "ونحن حينما نُلمح لهذا الجو العام الحاضن ، لا نقصد أن نُعدّد الأسباب التّي كانت وراء ظهور الكتاب ،إنّما نقوم بذلك انسجاما مع المقام . الفكرة الفلسفيّة تتعيّن بعدما أن تمر بقنوات منها ماهو ذاتي و منها ما هو موضوعي ، قنوات بعضها معلوم و بعضها الآخر مجهول يطاله البحث أو سيطاله مستقبلا . وبالعودة إلى الفكرة الأولى التّي تضمّنها كتاب "كانط" و الذي نحن بصدد قراءته ، يبدو أنّ لها

---

[1] نور الدين حاطوم.تاريخ الحركات القومية،ج1-يقظة القوميات الأوروبية- دار الفكر،ط2.ص37 .

[2] المرجع نفسه .ص38.

[3] المرجع نفسه،ط2.

من الأهمية القصوى ما يؤهلها لتكون في الصدارة و أساس لجميع الأفكار الآتية ،ليس هذا فحسب ، بل أتصور أنّ ما جاء في ثنايا هذه الفكرة الأم أو(القالب) يكتسي من الأهمية البالغة ما يدفعنا إلى القول ، أنّ "كانط" وهو يُنشأ منظومة معرفية ، تُعنى بالمسألة الدينية ، يبث على حيز الإحالة فكرة تعبر عن موقف عام يتبناه الفيلسوف ،أقصد موقف لا يخدم فقط السيّاق المتعلق "بالدّين في مجرّد العقل إنما أتوقع أنه يشمل كل الإنتاج الفكري الكانطي، أما منطوق هذه الفكرة فيأتي بهذا الشكل الكانطي :" إنّ الغاية هي دوماً موضوع تملّك ما ، أيّ موضوع رغبة مباشرة لامتلاك شيء بواسطة الفعل "[1] هل بإمكاننا أن نشتق مما ذُكر من قبل "كانط" شيء أو أشياء ، قد تدفع بحركة الفكر قُدماً إلى الأمام ، نقول أجل ،إن القضية الخبرية التي تنص على أنّ الغاية هي دوما موضوع تملك ، هي من حيث الصورة المنطقية تحليلية تأليفية ، تحتضن أكثر من دلالة واحدة ، قد تكون التالية واحدة من هذه الدلالات تأتي سرداً على لحظتين أو زمنين متتابعين :

الزمن الأول: تطابق الغاية إطلاقاً، باعتبارها قصد مستقبلي التحقق مع مُتعيّن موضوعي.

الزمن الثاني: تعيين وجود قبلي لمفهوم نظري –الغاية – بوصفه حالة نفسية داخلية تتجه نحو الخارج اضطراراً.

نستنتج، مما سبق نتيجتين نفضل أن نصوغهما على هيئة حكمين أو قضيتن هما

حكم عام : كل فعل بشري تُحركه ابتداء رغبة ما ،هذا يفيد بأن الإنسان ليس بكائن ناطق ، كما عُرّف ،فعُرف بهذا سلفا ، إنما الأصح قولاً : الإنسان آلة راغبة

حكم خاص تحصيلي : كل ماله علاقة بالدّين أو الأخلاق فمرده إلى الرغبة ، وبالتالي ، فإن الرغبة عامة هي التي تقود أفكارنا –مثلا– إلى الوجهة التي تُحقق بواسطتها مآربها الخاصة . عند هذا الحدّ أيمكن الحديث عن ثنائية الجسد و الروح ؟ نلاحظ أن "كانط " في جمل معدودة قد اختار لها حيز الإحالة يُفصح عن جديد ويكشف عن طبيعة إنسانية استغرقتها بالكلية الرغبة الجامحة ، كل يقدمه بكيفية العبارة الدالة المتكئة على سند منطقي ، حجة على صرامة عقلية ، نراها من جهتنا و مجاراة ، مؤشراً على قوة عزيمة الإنسان "كانط" ، ودخوله المعترك بنية الواثق المنتصر أما حجتنا في ذلك ، أما أورده في الفكرة الثانية من تحدي موجه لكل من تسول له نفسه بتعرض بالأذى لأولئك الراغبين ، في خوض غمار البحث العقلي في المسائل الدينية ، من قبل رجال الدّين بأسلوب خاص عام ،قد وضع ألفاظه لتدل وتُشير إلى مفاهيم لا إلى ماصدقات حيث يقول :" إنّ دين ، يعلن الحرب على العقل من دون تفكر في العواقب ، سوف لن يتمكن مع طول المدة من الصمود أمامه ، بل أجروء على وضع هذا الاقتراح : ألاّ يكون من الجيّد ، بعد إتمام التعليم الأكاديمي في لاهوت الكتاب المقدس ، أن نُضيف له في كلّ مرة كنوع من الخاتمة ، درسا خاصا حول النظرية المحضة في الدّين (تلك التي تستفيد من كلّ شيء بما في ذلك من الكتاب المقدس) يتخذ على

[1] جيل دولوز.فلسفة كانط النقدية، المرجع السابق.ص14 .

سبيل المثال بمثابة خيط هاد له ، هذا الكتاب (أو كتابا آخر ، إذا استطاع المرء أن يتوفر على أن يتوفر على شيء أفضل منه على نفس الطراز) وذلك بوصفه أمرا ضروريا و مطلوبا من أجل التكوين الكامل للممتحنين ؟ "[1] .

الأحسن في مطلق الأحوال ، أن يُغلق زمن الحرب ، فتردم الأسلحة ردماً ، ويتجه الدّين و الفلسفة ممثلة العقل بامتياز، إلى كلمة سواء ، قد أبان عنها "كانط"

موضحا أن مهمة الصلح تقع على عاتق الفلسفة كفيلة بأن تفتح فضاءً جامع للمختلف في المنهج ،المتفق في الغاية ، ولأنه فضاء للاختلاف ،فعلى رجال الدّين وهم منهمكون في الدّرس الدّيني ، يتدبرون العلم اللدني، أن يُقعّدوا الدّرس على أسس نظرية ، قد استقت من معين الفلسفة ، معين العقل الذي لا ينبض ، غير هذا الطريق الواعد فلا.

تلكم هي أهم الأفكار –فكرتان أساسيتان في الواقع– التي بثّها " كانط" في تصديره الأوّل لمؤلفه:"الدّين في مجرّد العقل" الذي ظهر سنة 1793م ، ويمكن أن يُستخلص من نتائج عامة قد تظهر بفعل القراءة ،لهذا التصدير المؤسس لفلسفة أقل ما يُقال عنها أنها فلسفة في طور النشأة و التكوّن و التشكّل ، وبالمناسبة قد تكون هذه السانحة ، فرصة مواتية للاطلاع عن كثب والتتّبع عن قرب لعملية هذا التشكل و تفاعل مكوناته المؤلفة لجسم هذا المولود الجديد المعلن .

قبل التطرّق إلى مضامين النتائج، علينا أن نميّز بين نوعين من النتائج، نتائج على مستوى الصورة أو الشكل، و نتائج على مستوى المضمون أو المحتوى:

أ– نتائج على مستوى الصورة : وكل إناء بالذي فيه ينضح . رغب "كانط" أن يكون مسعاه بخصوص فلسفة مستقبلية الفعل والتأثير ، قد هُيئت لها كلّ أسباب النجاح ، سواء أكانت أسباب متعلقة بالقوة النظرية ، لدى نراه لاينفك وهو يقدّم فكرة إلاّ ويُقرنها بما ينسجم معها ويوافق قوانين المنطق التي كانت معروفة آنذاك تضفي على الفكرة السمك والمتانة، أعتقد أن "كانط" كان دائما فيما يكتب يتخذ هذا المنحى . أو كانت أسباب متعلقة بالقوة النفسية و التي يشعر بها القارئ من خلال الأسلوب المستخدم من قبل" الكاتب" –مع عدم إغفال معطى أساسي بالنسبة للذين يقرؤنّ الكتاب كما الحال بالنسبة لنا نحن – فرغبة "كانط" كانت شديدة في إلحاق الدّين التاريخي بالدّين العقلي ، لدى جاء تحذيره شديد اللّهجة لأولئك الذين يعلنون الحرب على العقل ، بأنّهم سيُهزمون لأنهم الجُزء الذي يتفرع عن الأصل ، فالملحق تابع بالماهية .

ب– نتائج على مستوى المحتوى : منذ الوهلة الأولى جاءت جمل "كانط" قطعية الدلالة حينما يكون سياق الحديث متعلق بالأخلاق وتحديداً باستقلاليته عن الدّين ، ومتى تطرق إلى موضوع الدّين ، جاءت جمله محتاجة–

[1] إيمانويل كانط.الدّين في مجرّد العقل.المرجع السابق.ص49 .

بالماهية– إلى إعانة خارجية ولن تجد الإعانة المعرفية إلاّ باللجوء إلى العقل العملي أما السند المنطقي فيؤخذ من العقل المحض مباشرة

إذا مؤلف "كانط" :"الدّين في مجرّد العقل" فسحة يتم في مجالها لقاء بين عقلين أثنين: عقل مؤسس حاضن لمعرفة ما ، وعقل منتج لمعرفة تفاعلية ،هي بالمناسبة وبالظرف المستدعي ، دين يقوم قياما و يُوجد بالفعل بعلّة العقل الموجد .